جراح على الطريق

قصص قصيرة

د. طارق البكري

دار الرُّقيّ
للطباعة والنشر والتوزيع

جِرَاحٌ على الطريق

قصص قصيرة

الطبعة الأولى

2005

دار الرُّقيّ
للطباعة والنشر والتوزيع

خليوي: 00961 3 235949 بيروت ـ لبنان
تليفاكس: 00961 7 920158 ـ ص.ب.: 4101

جِرَاحٌ على الطريق

قصص قصيرة

تأليف

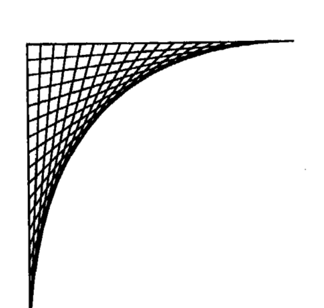
د. طارق البكري

دار الرُّقي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية

للفنانة الكويتية

نجيبة بو طيباه



إهداء

إلى كلِّ قلبٍ على وجهِ الأرض

أُهدي هذه الجِراحَ

عَسى أن تَجد من يُداويها

طارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

كتابات الأديب الدكتور طارق البكري تتصاعد «جراحاً» وتنسج من واقعنا أحداثاً قريبة من القارئ وتشكل تجارب ثرية تبوح بحقيقة أقرب إلى الخيال.

فبعد «جراح ساخنة» و«جراح تحت الشمس»، بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ «جراح على الطريق» لتكتمل ثلاثية الجراح المفتوحة، التي تروي حالنا، وتصور معاناة الإنسان المعاصر الذي

يعيش صراعاً مريراً بين أحلامه ومحيطه ومستقبله، والأحداث التي ينجذب نحوها باستسلام متمرّد..

وجه الحقيقة نجدها في هذه الثلاثية، التي لم تكتب من علو... فالكلمات السهلة البسيطة، البعيدة عن أي تعقيد معنوي ولغوي، تجعل الدكتور البكري قريباً من القارئ بكل مستوياته. فالأدب الحقيقي هو الأدب الذي يعيش في قلبه..

إن القضايا التي يطرحها مؤلفنا، والإقبال الكبير الذي أبداه القرَّاء في الجزءين الأول والثاني من هذه الثلاثية، جعلنا نُلِحُّ على المؤلف، ونستعجله لإصدار «جراح على الطريق». رغم أنه

كان يستمهلنا، إفساحاً بالمجال للكتابين السابقين.

ونحن... كدار نشر، ومن خلال الاتصالات التي كانت تَرِدُنا، والرسائل التي وصلتنا، وما شعرنا به من تعطش القارئ للأدب الجاد الحقيقي، المستمد من الحياة، جَعَلَنا نصر على الإسراع بإصدار هذه المجموعة، إيماناً بالدور الذي يلعبه الأدب عموماً، والقصص خصوصاً، في تعرية المجتمع وإعادة تشكيل الوجوه القبيحة، وتسديد المسار. وهذا هدف «دار الرقي»، فكل إصداراتنا تحمل في طياتها رغبة في تنوير المجتمع العربي، وإظهار الحقيقة دون تورية أو رتوش.

ولعل المؤلف د. البكري الذي اشتهر بالكتابة للطفل، وقد أصدرنا له في «دار الرقي» عشرات الكتب والقصص، كما أصدرت له العديد من المراكز والدور والمؤسسات في لبنان ومصر وسوريا والكويت والسعودية وعُمان وغيرها... اختار هو أيضاً طريق «الجراح» ليجسد هذا العالم المليء بالآلام، فهو يفعل مثل الطبيب الذي يحدد موضع الألم ثم يستعمل المِبْضَعَ ليشق الطريق ويستأصل الأورام..

هذه المجموعة الجديدة... رسمت لوحاتها الفنانة الكويتية المعروفة الأستاذة نجيبة بو طيبان، وتظهر براعة خطوطها وتميزها.. حيث وضعت تجربتها الطويلة

وخبرتها العميقة لتجسد هي أيضاً الواقع الذي تصوّره القصص إلى رسومات معبرة تفيض كذلك «بالجراح».

ولا يسعنا في «دار الرقي» إلا أن نقدم الشكر للمؤلف وللفنانة اللذين يسيران معاً على خط واحد في سبيل أسرة عربية حضارية بنَّاءة، بعيدة عن الآلام والجراح..

وحديثنا عن د. البكري ومؤلفاته حديث طويل.. لا يمكننا في هذه العجالة أن ننقد مؤلفاته، ولا أن نوجز عطاءاته في مجال الطفولة خاصة، والأدب بشكل عام.. فتجربته الطويلة مليئة بالعطاء المتميِّز.. وقد أصدرنا له في «دار الرقي» ثلاثة كتب متسلسلة

بعنوان «٥٠ قصة قصيرة للأطفال»، وهي بمجموعها ١٥٠ قصة، نأمل أن نعيد إصدارها في مجلد كبير ضخم، بعد الإقبال الكبير الذي شهدناه في كل المعارض التي شاركنا فيها على امتداد العالم العربي..

وكذلك شَجَّعَتْنا تعابير الثناء وكتابات النقد التي تشيد بأسلوب المؤلف وخياله.. مما دعانا لنسرع بإصدار هذا الكتاب.. على أمل أن يلقى الإقبال نفسه من قبل القارئ العزيز الذي هو أول همِّنا في سعينا نحو إرضائه وتقديم الأفضل له دائما..

مجموعة «الجراح» ثلاثية مليئة بالقصص المعبرة، تراها مرتبطة كسلسلة

واحدة، تشتعل حرقة ودفئاً وتنبض بقوة.

هي قطعة من جسد المؤلف، وهي أيضاً علامة مضيئة في أعمال الدار التي تعترف وتقدر قيمة الكلمة في زمن العَوْلمة، وزمن الانفتاح اللامعقول..

نسأل الله العلي القدير، أن يسهم هذا العمل في المَسَار الفني القصصي، ويضيف إلى القصة القصيرة إسهاماً جديداً، ويلقى الكتاب الإقبال الذي شهده الجزء الأول والثاني..

ونحن في «دار الرقي» ننتظر جديد الدكتور طارق البكري لنعُود إليكم مرة جديدة وفي كتاب جديد..

الناشر

أنيس سعد

مقدمة المؤلف

عزيزي القارئ!

لا تدري مدى فرحتي بلقائك، وحرصي على الوصول إليك.. وتقديمي أفضل ما أستطيع من قصص، ترضي ذوقك الراقي، وتُشْبع نَهَمَكَ إلى القراءة الجادة المفيدة، البعيدة عن السطحية من جهة، والغرابة المضللة من جهة ثانية..

حديثي إليك هذه المرة حديث مكاشفة.. ولا غرابة في ذلك، فأنا لم أشعر يوماً بشيء يعزلني عن القارئ..

وما تَزَيَّيْتُ بلبوس تجعل علاقتي بك مجرد علاقة عابرة أو علاقة مؤقتة تزول بزوال أسبابها... فما من قصة.. أو كلمة.. أو ورقة، أرسلها إليك عبر كتاب أو صحيفة أو مجلة؛ إلا اعتبرتها رسالة خاصة من صديق إلى صديقه..

عزيزي القارئ..

أنت لست مجهولاً بالنسبة لي.. في أي بقعة من بقاع الأرض كُنْتَ، وكل ما أكتبه يتنفس برئتيك، وينبض بقلبك ويحيا بروحك، فلا أكتب لألقي عليك موعظة أو لأمْلي عليك تصرفاتك..

واليوم، وأنت تُقْبل على هذه المجموعة القصصية، وهي المجموعة الثالثة في سلسلة «الجراح»، تجد تجارب

جديدة، ربما رأيت مثلها، وشاهدت من حولك أناساً يشبهون شخوصها.. وهي بمعظمها صورة واقعية، صورة لحقيقة أليمة نعيشها على امتداد البلاد..

وما أَحْوَجَنا اليوم إلى أدب لا يهيم في الخيال لمجرد البحث عن خطرات الإبداع، فالأدب الواقعي الذي يعري المجتمع، يجعل ممن يهتك الأدب سِتْرَهُم ويكشف قَبِيحَ أفعالهم.. أشكالاً من الجراح.. قد.. وأقول قد... ينفع معهم العلاج وتتبدل أحوالهم.. وإن كان هكذا أمر حلماً بعيد المنال..

وأعود لأكرر فرحتي بلقائك.. وسعادتي بتفرغك مدة من الزمن لملاقاتي بين دَفَّتَيْ هذا الكتاب، وهي نشوة أكيد

أن تصافح كلماتي نظرات عينيك لتعيش معي، وفي كل قصة دقائق معدودات، نتبادل الأفكار.. ننقد المجتمع، نبحث عن دواء حقيقي يشفي أمراضنا المستعصية ويوقف نزيف الدم المنهمر من «جراحنا».

أيها القارئ المحب..

أنت تقول إن المؤلف شغل نفسه سنوات طويلة بالكتابة للطفل، لكنه تحوَّل في كتبه الأخيرة لكتابة القصة الاجتماعية التي تكشف عورات المجتمع، وقد تتساءل: ما هو الرابط بين هذا وذاك؟!

وبالفعل، لقد سُئلت أكثر من مرة عن السبب.. لكن التبرير لا يقدم جديداً ولا يضيف إلى ما أحاول أن أصوِّره ابتكاراً.

وأحب ـ عزيزي القارئ ـ أن أكون معك هذه المرة أكثر مكاشفة لما يدور في نفسي من خيالات، لم أرغب بكشفها في لقاءاتنا السابقة، فأظل في فكرك لغزاً. . وتبقى القصص هي الأساس، بعيداً عن المؤلف ونفسه. .

أنا لا أنكر أنني انشغلت طويلاً بعالم الطفولة، وقضيت عمري أدور بين أندية الأطفال، أقرأ معهم. . أعيش بينهم. . أرسم معهم. . . هم يكبرون بينما أنا أظل كما أنا. . فأبحث عن غيرهم لأعيد الكرة مرة بعد مرة. .

ولطالما صادفني شبان وشابات. . . التقيتهم في طفولتهم. . أجريت معهم حوارات نَشَرْتُها في صحف كثيرة. .

فرحت بلقائي بهم في فرصتين.. في طفولتهم وفي شبابهم.. وظللت مُلِحًّا في طَرْقي لباب الطفولة حتى أبقى في عالمهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً..

ولا أريد أن أقصّ عليك حكاياتي الكثيرة مع عالم الأطفال، فلي في ذلك أسلوبي الخاص وحياتي الخاصة... لكنني كما قلت، حريص على مجاهرتك بأشياء ما أخبرتك بها قبل الآن، وربما، وربما يحق لك، بعدما حرصت على اقتناء هذه المجموعة «الجراحية» أن تعرفها..

ولقد طالبني بعض الأطفال الذين كبروا بشيء يخصهم..

فأدركت أني قد نجحت معهم..

وربما تستحق «بعض» ما أراه في الحياة أن يصور في كلمات. .

وهنا أريد أن أنفي مقولة أنني غرقت تماماً في عالم الطفولة، وما كتبت للكبار قبل هذه السلسلة. . مقرًّا أنها الأكثر نضوجاً والأقرب إلى الكمال من غيرها . .

وقد أصدرت العديد من الكتب الموجهة للشباب، ومنها كتاب: «مدرسة التجارة من جيل الكبار إلى جيل الشباب» الذي أصدرته «دار المنار الإسلامية» في الكويت برعاية شركة «عالم المواهب»، كما نشرت العديد من القصص المتنوعة في كثير من الصحف والمجلات الكويتية والعربية وإن كانت في مجملها قليلة جداً

قياساً بما أنشره من قصص الأطفال في أكثر من دورية عربية . .

ولا أريد ـ عزيزي القارئ ـ أن أثبت ذلك لصناعة مجد زائل، أو لبناء تاريخ شخصي، لا تهمني تفاصيله بقدر ما تهمني صراحتي معك وإحساسي بالوصول إلى داخلك، بعد عناء طويل ومرير في محراب الكلمة حتى تصل إليك بهذا الشكل الذي أرجو أن يرضيك ويشبع رغبتك بالاطلاع على التجارب الواقعية الحية . .

ولست أدري إن كنت قد نجحت في كلماتي السابقة في الإجابة على أسئلتك . . وهل استطعت أن أنقل إليك ما يعتمل في نفسي بهذه البساطة التي

عوَّدتُك عليها منذ البدء... لأنني أؤمن أن تلك المساحيق والبودرات التي يصطنعها البعض لتغطية الوجوه، وأن المبالغة في القسوة على القارئ وعدم البوح بالحقيقة، وأن التفلسف في الكلام، والتنميق بالعبارات.. وغير ذلك، يجعل المسافة بين القارئ والكاتب هوَّة سحيقة، رغم ما تبدو عليه من علاقة متينة خادعة..

وأريد أن أكشف لكَ أكثر من ذلك..

إن في القصص التي أكتبها هروباً من الواقع.. ورغبة بواقع أفضل.. وخصوصاً في قصص الأطفال.. التي تنتزعني انتزاعاً من وسط الكبار المليء بالجراح والنفاق والتدليس، إلى بيئة

تسكنها البراءة وتظللها الطهارة.. وربما يكون هذا هو السبب الأول الذي جنح بي إلى عالم الأطفال، حتى أشعر أن قصص الأطفال هي التي تكتبني ولست أنا أكتبها.. بينما قصص الكبار التي تأتي بلغة مختلفة وأسلوب آخر، تتطلب مني شيئاً من التكلُّف لما تحويه من عفونة الحياة العصرية التي يدَّعون زوراً وبهتاناً أنها حكاية راقية متطورة.. بكل ما فيها من دَنَس.

هناك بشاعة حقيقية نحاول تجميلها.. وأنا ككاتب ـ ولا أدعي الاحتراف ـ أحاول أن أقدم شيئاً يحاكي الواقع ولا يجمِّله، دون السعي وراء بطولات شخصية.. ونوازع فردية ليست في

حسابات القارئ..

حاولت يا صديقي أن أجيبك عن بعض تساؤلاتك..

ربما لم أقنعك.. ولم أُحسن التعبير عن الأفكار التي تزدحم مثل طابور على مدّ البصر.. ولدي الكثير الكثير مما أريد أن أخبرك به... لكنني أتوقف لأنك حصلت على هذا الكتاب لتقرأ قصصه لا لتسمع هموم مؤلفه.. ولك الحق.

المؤلف
د. طارق البكري
الكويت
أغسطس 2004

بريد المؤلف الالكتروني
docbakri@yahoo

علاقَةٌ خاصَّة

عَادَت رسميَّة الدِّيب إلى قريتِها الوادِعة في إحدى مناطِقِ البِقاع اللُّبْنَانِي بعدَ غيابٍ طويلٍ في البرازيل..

عَادتْ رسميَّة إلى قريتِها بعْدَما جَاوزَتِ السَّبعينَ من عمرِها، لكنَّها كانَتْ مثل مُعظمِ أبناءِ القُرى البِقاعيَّة، قويَّة البُنيةِ، شديدة العودِ، قادرةً على القيامِ بمجهودٍ بدَنيٍّ يفوقُ قُدُرات شباب المدنِ العصريَّة.

الستّ رسميَّة، كما ينادِيها أبناءُ قريتِها

الهادِئةِ الهانئة، غابَتْ عن مسقِطِ رأسِها سَنواتٍ طويلة.. كانَ زوجُها التاجرُ مسعود، وهُو ابنُ عمِّها، لهُ تجارة كبيرة في البرازيل.. عادَ إلى بلادِهِ يومَ قرَّر الزواج.. كعادةِ مُعظمِ أبناءِ القُرى اللبنانيَّة، عادَ إلى قريتِهِ الوادِعةِ ليتزوَّجَ ابنةَ عمِّهِ رسميَّة.. ثم أخذَها إلى البرازيل حيثُ قضَت هناكَ أكثرَ من 50 سنة..

وبعدَ أنْ كبُرَ أولادُها.. وتوفِّيَ زوجها.. جمعتْ أولادَها الَّذين يَعيشونَ في البرازيل وكأنَّهم في قريتِهِم البقاعيَّة، جمعتْهم وقالت إنَّها تريدُ الذَّهاب إلى القريةِ لتموتَ فيها.. وتُدفن في تُرابِها..

عادتْ رسميَّة محمَّلة بالذكرياتِ القديمة..

عادتْ تبحثُ عن المكانِ الذي وُلدت فيه..

عَن بيتِ أُسرتِها..

عن نبعِ الماءِ الذي شربَتْ منهُ في طُفولتِها ورَيعانِ صِباها..

ذهبتْ إلى المدرسةِ الَّتي درستْ فيها..

إلى الطُّرقاتِ الجبليَّةِ القديمَةِ التي طالما سارَت عليها تركبُ على دابَّةٍ منَ الدَّواب الَّتي تملأُ حظيرةَ بيتِ أبيها..

شعرتْ رسميَّة بشيءٍ منَ النزوعِ إلى الماضي المرسومِ في أعماقِ الذَّاكرةِ.. اكتشفتْ أنَّ كلَّ أشيائها الصغيرة تغيَّرتْ، وجهُ قريتها تغيَّر.. أصبحت القريَةُ بلدةً

كبيرةً، أقربَ منها إلى مدينة، تضجُّ بالبائعين والمُشترين والسّائحين..

بحثتْ عن صديقاتِ الطفولةِ.. ومن تجد منهنَّ بعد 50 عاماً؟! ومن تبقَّى منهنَّ على قيدِ الحياةِ لا يملكنَ ذاكرةً مثل ذاكرتِها.. فذاكرتها واحدة.. ذاكرتها حملتْ في حناياها نقوشَ القريةِ القديمة، أمَّا من تبقَّى من معارِفِها ـ وهم قلَّة قليلة ـ كانَت ذاكرتُهم مُتخمة.. وبِالكادِ يذكرونَ اسْمَها..

كانتْ رسميَّة تُراهنُ على الماضي..

ولعُها بقريتِها القديمة.. حنينُها إلى تِلك الأيَّام، غربتُها.. كلُّ ذلكَ أفقدَها فرحةَ الرجوعِ إلى مسقِطِ رأسِها..

ما شاهدَتْه من تغيير بدَّدَ كلَّ أحلامِ الماضي.. بدَّد كلَّ الصورِ المحفورة في الذاكِرة.. شعرَتْ أنَّها استيقَظَت من وَهمٍ كبيرٍ كانت تعيشُه.. علِمت أنَّها كانتْ مخطِئة.. كانت تجهَلُ ـ متعمِّدة في كثيرٍ منَ الأحيانِ ـ ما أضحَتْ عَليهِ قريتها..

مشاعرُ الغُربةِ تكرَّرت..

علاقتُها الخاصَّة بترابِ قريتِها لم تشفَعْ لأحاسيسِها..

آلام الغربةِ عصرَتها من جديد..

علاقتُها الخاصَّة بما تحمِله من أشيائِها القديمة كانت همًّا بالنِّسبةِ إليها..

آلامُ الغُربة أعادتْها 50 عاماً إلى الوراء..

علاقتُها الخاصَّة بأرضِها لم تَفْلح بتخفيفِ كلّ هذا الألم..

ماءُ القريةِ تغيَّر..

جبلُ القريةِ تغيَّر..

مساحةُ القريةِ تغيَّرت..

المسجدُ القديمُ تهدَّم.. وبُنِي مكانَه مسجدٌ ضخمٌ ليستوعبَ أعداد المصلِّين الَّذينَ تزايدوا معَ اتِّساع البَلدةِ وازديادِ عدد سُكَّانِها.. علاقتُها الخاصَّة بكلِّ أشيائها القديمة لم تُسعفْ خيالَها الخصبَ لإحياءِ ما قد مات.. ودُفن منذ زمن..

ذهبتْ إلى الأشجارِ القديمةِ الَّتي لا تزالُ مُنتصبة في قلبِ القريةِ..

استظلَّت بها..وحدهُ الظلال كان

واحداً.. وحدها الأشجار لم تتغيَّر..
بقيتْ صامدة... شامِخة..

انتبهت أنَّ الأشجار الَّتي تبحثُ عنها
عددُها قليلٌ جدًّا.

اكتشفتْ أنَّ كلّ الصُّوَر المرسومةِ
خيال..

وأنَّ تلكَ العلاقة الخاصَّة وهمٌ.. بل
وهمٌ كبير..

في اليومِ التَّالي.. توعَّكت..

لم يُناسبْها «الطقسُ» الجديد..

سَكَنَت الفِراش في المستشفى
الجديد... ولمْ يكُن في قريتِها
مستشفياتٌ في الماضي ولا
مستوصفات..

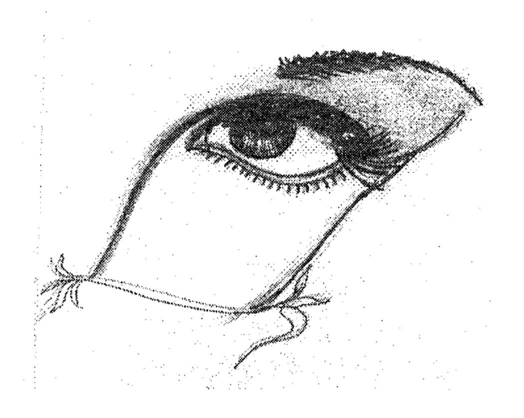
سَكنَت آلامها التي تعتَصِرها.. وظلّت تعتصِرُها دونَ أن تقاوم.. لم تكن تُريدُ المقاومة..

استسْلَمَت لأوجاعِها.. لم يكُن هنالِكَ شيءٌ يستحقُّ البقاء..

غادرت جسدَها..

دَفنَها أهلُ القريةِ بهدوء.. ولم يفتح أحدٌ منزلَهُ لتقبُّلِ العزاء..

لكنَّها دُفِنت في تُرابٍ لم يتغيَّر.. بينهُما «علاقةٌ خاصَّة».



إشاعةُ حُبّ

مــن أيــنَ أتَــت بــتِــلــكَ الأفــكــارِ الغريبة؟!..

من قالَ لها إنَّني أحبُّها.. ومشغولٌ ليلَ نهار بها؟!..

أنا أعترفُ أنَّها حُلوة.. بلْ مثيرة.. لكنَّني لا أشعرُ نحوَها بعاطفة..

الشيءُ الوحيدُ الذي كانَ يلفِتُني إليها تلكَ القامة السَّاحرة والمشيَة المميَّزة.. لكنَّني لا أحبُّها..

الحبُّ يختلفُ عن تلكَ النظراتِ الَّتي

أرمقها بها في ساعاتِ الْعمل..

مكتبُها المقابِلُ لمكتَبي يَجعلُني ـ مُضطراً ـ أتأمَّل جمالَها الفريد.. وربَّما كانَ من حظي أن أحظى بِمِثْلِ هذا الوجْهِ المشرقِ والابتسامة الواسعة كلَّ صباح..

كان يحسُدني كثيرٌ من الزملاءِ على هذهِ «النِّعمةِ» حيثُ أتمتَّعُ بالروائحِ العطريَّةِ والمَنظرِ الجميلِ.. وذلك بالتَّأكيدِ أفضلُ من التصبُّح بوجوهٍ معكَّرةٍ عابِسةٍ.. كما أن النِّساء يَجْعَلْنَ من الأماكنِ الَّتي يَمْرُرْنَ بِها مورقَة، فكيف بمكانٍ تستقرُّ فيهِ كلَّ يومٍ ساعاتٍ وساعات..

لكن كيفَ انتشرت هذهِ الإشاعَة «المُنكرة» بين الزملاء؟!

في الحقيقة... لم أتكلَّمْ مَعَها يوماً بأمرٍ خارج العملِ.. ما كنتُ في الأصلِ أجرُؤُ على ذلك.. فقد كانَت جديَّة إلى أبعدِ حدود.. لا تسمحُ لأحدٍ بتجاوزِ علاقة الزَّمالةِ والعمل..

سَمِعَتْ بالإشاعةِ مِثلي تماماً..

انفَجَرَت بالغَضَبِ.. صبَّتْ كل غَضَبِها عليَّ «أنا»..

رَفَعَتْ شكوى إلى المدير..

اعتذرتُ.. قدَّمتُ كلّ طلباتِ المغفرة.. والصَّفْح..

أَعْلَنْتُ أنَّني تفاجأتُ بالخبرِ مثلَها..

ظنَّت أنَّني مَنْ أشاعَ هذا الكلام عنها..

كانت مشاعِرُها ترفُضُ ذلك.. ترفُضُ أن يقال عنها كلمة..

لم يَشفَع لي كلّ تاريخي بِالعملِ..

مَنْ يا تُرى ذلكَ الَّذي تَجَرَّأ على إشاعةِ هذا النبأ؟!..

الكِذبةُ كانَت كبيرة.. كانت صَدْمة..

لم أكُن أحبُّها.. لم أشعُرْ نحوَها يوماً بأيِّ عاطفة..

شاهدتُها تَبكي في غرفَةِ المدير..

أحسستُ بأن كرامتها جُرحت..

أقمتُ الدُّنْيا ولم أُقْعِدْها.. بحثتُ عن ذلك «المُجرمِ الخطيرِ» الَّذي أرادَ تَشويهَ سُمعتِها واتِّهامي بشيءٍ لا أتصوَّره..

ظلَلْتُ أبحثُ حتى اكتشفتُ أنَّ زميلةً

تغارُ مِنها قامت بِهذا الفِعل..

أخبرتُها.. بشرط أن تصفحَ عنْها لكي لا يطردَها المديرُ منَ العَملِ..

أعْجَبَتْها كلُّ التَّصرُّفاتِ الَّتي أقدمتُ عليها..

قدَّرتْ موقِفِي مِنها..

نحنُ اليومَ لدينا أربعُ أولاد.. وما زِلنا نعملُ في المكانِ نفسِه..

أصبحتْ هي مديرةَ أحد الفروع.. وأنا في الإدارةِ العامَّة موظَّف عندها برُتْبةِ مديرٍ عامّ.



نُورا

أكثرُ من مُناسبةٍ جمعَتْني بِها، هِي امرأةٌ شابَّة في منتصَفِ الثّلاثينيّات مِن عُمرِها، شعرُها أسودُ داكنٌ، وملامِحُها شرقيَّة صافية..

جَميلةٌ بِبساطة، لا تستخدمُ الماكياج الصارِخ مثل كثيرٍ من النِّساء العاملاتِ اللَّواتي يحرِصْنَ على الظُّهُورِ بشكلٍ لافت..

بكلمةٍ واحدةٍ.. امرأةٌ كلاسيكيَّةٌ..

ثيابُها.. حركاتُها.. كلماتُها..

تصرُّفاتُها. . كأنَّها منَ القرنِ التاسِعِ عشَر، وليسَت منَ القرنِ الواحدِ والعشرين.

بِصراحة؛ هذهِ النَّوعيَّة منَ النساءِ تُعجبُني، فَنادراً ما نحظى بِامرأة على شاكِلَتِها في الوسَطِ الَّذي نعيشُ فيهِ. . فاليومَ مُعظَمُ الشَّابَّاتِ يَتَطلَّعنَ إلى المُطرباتِ والمُمثِّلات ولا تتأخَّرنَ عَنِ ارتداءِ الملابِسِ الَّتي يَصلُحُ أن يُقالُ عنها: «ما قلَّ ودلّ».

عرفتُ نورا منذُ ثلاثِ سنوات. . ومنذُ ذلكَ الْحينِ ما رأيتُها تتعدَّى حدود الزَّمالةِ مع أحد.

وكانَتْ تُفضِّلُ ركوبَ الباصِ للوصولِ إلى بيتِها في إحدى ضواحِي

المَدينةِ رُغمَ أنَّ بعضِ الزملاءِ الذينَ لديهِم سيَّارات يسكنونَ في المنطقةِ نفسِها الَّتي تسكنُ فيها . .

أعجَبَتْني هذهِ المرأة، لكنَّني كنتُ أخافُ من الاقترابِ منها، فأنا رجلٌ عازِبٌ، وأخشى النساء، ولم أعرِفْ في حياتي امرأة غيرَ أمِّي وأَخَواتي حتَّى ابنة خالَتي التي كانت تعيشُ في منزلٍ في العِمارةِ نفسِها حيثُ أسكُنُ مع أهلي لا أجرُؤ على الحديثِ مَعَها . .

رُبَّما أكونُ رجلاً معقَّداً، وهذا ما يُشاعُ عنِّي دائماً . .

نورا جميلةٌ في بَساطتِها . . مخيفةٌ في حديثِها . .

مديرُ المؤسَّسة التي نَعملُ بها يكلِّفُها دائماً بأعمالٍ شاقَّة يعلمُ أنها تُنجزُها بسرعةٍ وجديَّةٍ. . الفتياتُ الأخريات يتمتَّعنَ في عملِهِن على حسابِها، ومع ذلكَ هي راضيةٌ سعيدة. .

بعضُهنَّ يقدِّمنَ «تنازلاتٍ» للسيِّد المدير حتَّى يَنَلْنَ رضاه، ويأخُذْنَ إجازاتٍ وعلاواتٍ بسبَبٍ وبِلا سبب، أمَّا هي، وطوالَ معرفَتِي بها منذُ ثلاثِ سنواتٍ، فَلمْ تتغيَّب عنِ العملِ يوماً واحداً، حتَّى عندَما تمرَض تأتي لتُنجِزَ أعمالَها وأعمال الآخرين. .

اعتادَ الجميعُ على ذلك، والكُلُّ مسرور بوجودِها، رُغم أن مُعظمهم لا يَستَسيغونَها، حتَّى ذلك المديرُ صاحب

العيون الزائغةِ والنَّفس الخضراء مضطرٌّ لإبقائِها بِالعملِ لِما تقومُ بِهِ من عملٍ لا يُؤَدِّيهِ كثيرٌ غيرها..

وبالمناسبةِ، نسيتُ أن أقولَ إنني أعملُ في شركةٍ مُعظَمُ عمَّالها وموظَّفيها من النساء.. وعَملي يضطرُّني لِدخولِ كل المكاتبِ في الصباحِ الباكرِ قبلَ وصولِ الموظَّفين وبعدَ خروجِهِم.. فَأنا أعملُ في قسم التنظيف..



ابنُ البلد

تـردَّد كـثـيـراً قـبـلَ تـحـديـدِ خـيـارِه بالتخصُّصِ الذي ينسجمُ مع طُموحِه..

لـم يكُن يـعـرفُ فـي أي كـلِّـيَّـة يـسـجِّـل نفسَه، أضاعَ سنَةً كامِلةً قبلَ أن يُحدِّد خَـيـارَه.. قـالَ لـه أبـوه: أمـامـك فـرصـةٌ واحِدة.. كلِّيَّة العلوم، أو كلِّيَّة الصيدلة، فوالده مدرس فيزياء، ويريد أن يصبح ابنه مثله تماماً.. لكنه يكره الفيزياء كما تكره الأسماك الخروج من الماء..

وافَقَ على الصَّيدلة.. ودرجاتُه عاليةٌ تسمحُ له بذلك، لكنَّه يميلُ إلى الفنّ،

إلـى الـرّسـم.. إلـى الأدب.. ومـا هـوَ الفَرق؛ الدواءُ يشفِي الجَسدَ.. والأدبُ يشفي الرّوح.. والاثنانِ يشفيان..

دخَلَ الصيدلة.. تفوَّق.. أصبح صيدلانياً كما يريدُ أبوه..

رغِبَ في الزّواجِ.. لم يعرِف كيفَ يختارُ عروسه..

أمُّه تريدُ تزويجَه بنتاً من البلد، وهو يريدُ الزّواجَ ببنتٍ من العاصِمة.. أمُّه تريدُ زوجة تقليدية وهو يريد زوجة عصرية.. ومع ذلك لا يريد أن يعصي أمه ولا أن يغضبها..

تزوج ابنة أخت جارتهم في البلد.. وكانت أمه راضية.

الزوجة الجديدة تعرَّف عليها ليلة العرس، لم تخرج من البلد ولا مرة واحدة.. عاشت سنوات عمرها العشرين دون أن ترى القنوات الفضائية وتستعمل الهاتف النقال، ولا حتى الهاتف الثابت، وهي لا تعرف أين تقع أمريكا وأين تقع أستراليا.. وتعتقد أن العالم ليس إلا قريتها الصغيرة..

أراد شراء منزل جديد فوضع له أبوه مواصفاته.. واشترط عليه أن يكون في محيط المنطقة التي يعيشون فيها في العاصمة..

وعندما أراد فتح صيدلية خاصة صار أبوه يشرف عليها ويوزع الأعمال. . وصار يتدخل حتى بوصفات الأدوية التي

يأتي بها الزبائن، فأبوه يريد أن يملأ وقت فراغه بعدما أحيل إلى التقاعد وتوقف عن التدريس.

زوجته التي تزوجها ليرضي أمه عاش غريباً عنها وعاشت غريبة عنه..

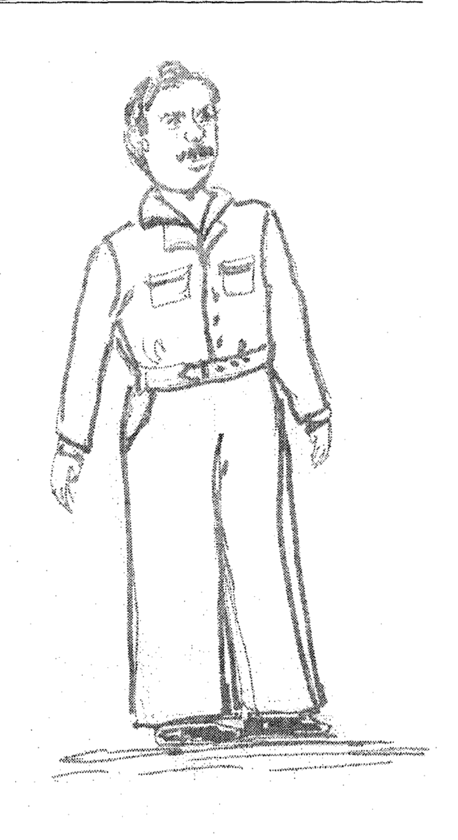
مهنته التي اختارها له أبوه لم تحقق جزءاً من ذاته..

بيته الذي قضى فترة طويلة ليجمع ثمنه لا يشبه حلمه..

صيدليته التي اشتراها لم يشعر أنها تمثله..

لقد كان طفلاً وحيداً مدلَّلاً..

واليوم يعيش رجلاً.. يبحث عن أشياء فقدها دون أن يجرؤ على المطالبة بها.. وظل وحيداً كما كان..



الزنزانة بلا أرقام

عشت عمري أبحث عن زنزانة..

صدِّق كلامي ولا تتفاجأ بما سأقول.

مرة حاولت أن أكون نزيهاً فسخر مني كل الناس، سعيت لأبدِّل كياني وأصلح من نفسي ما أستطيع، فما عاونني أحد على ذلك، فعشت عمري أحلم بزنزانة تأوي ضلوعي التي تشبه الزنزانة.. سبحان الله، ضلوع تشبه الزنزانة، تسجن القلب الذي يحيي أعضاء الإنسان، والأهم من ذلك... أنه دليل المحبين، ومع هذا فهو في زنزانة..

يا لحماقتي. . لقد أضعت كثيراً من الوقت وأنا أحاول أن أفهم الناس من حولي.

يا عم طاهر، يا عم شريف، يا أخ صادق، يا أخت وفاء، يا خالة كريمة، يا. . . يا. . . صدقوني لقد تغيرت. .

والنتيجة: سخرية زائد سخرية. .

جارنا أبو نجم، صاحب محل الألبسة النسائية، غرامه الحديث مع النساء، وهو مستعد أن يقدم محله هدية لعيون امرأة جميلة، لكنه في الحقيقة لا يتمادى معهن، فهو فقط يحب الحديث إليهن، وسماع ضحكاتهن. . وقد يقضي نهاره وهو يضحك ويمزح ويلقي النكات ليدخل السرور إلى قلب امرأة جميلة،

ولو دخلت المحل امرأة قبيحة أو كبيرة في السن يرميها من محله خارجاً، ولا يبيعها قطعة ملابس واحدة..

وإذا صدف وشاهدت في طريقك العم طاهر، يلقي عليك السلام مستعجلاً.. يريد الذهاب إلى الصلاة..

أما أنا فلا يسلِّم عليَّ مطلقاً.. لأني بنظره مجرم، وهو بأي حال يخاف مني، وأنا لا أحتاجه بشيء، ولكنني أغبطه على شعبيته بين نسوة الحيّ.

ابنه نجم يحاول تقليد أباه، وهو يستغل فترة غيابه القليلة والنادرة عن المحل ليستقبل النساء اللواتي يرغبن قليلاً بالشراء، وكثيراً بحديث العم طاهر.

وهناك، أقصد على مقربة من محل العم صالح، سوبر ماركت صغيراً للحاج شكري.. هو طيب جداً، ولكن إياك إياك أن تقترب من أمواله، ولو تأخرتَ بدفع ما عليك يقول لك: الأمر بسيط؛ ولكنك توقف تجارتي، سأضيف أرباحاً إلى المال الذي تستدينه مني.. هو طيب كما قلت، ويستغل حاجة أهل الحي وفقرهم ليزداد مالاً ويُعَرِّفُهم كم هو طيب لأنه يُعينُهم وقت الحاجة وعليهم أن يساعدوه لكي يستمر هو أيضاً بضخ الأموال لهم.. وغالباً ما يسترد شكري رأس ماله مضاعفاً..

هو أيضاً لا يحبني.. يظن أنه أذكى مني، يخفي أمواله عني، يعتقد أنني

سأسطو على خزائنه العامرة، وفي الواقع لو أردت سرقة أمواله كلها لاستطعت، ولكني أشفق عليه من هذا التفكير، فكلما يراني أمرُّ قرب محله، يُغْلقُ الباب بإحكام، ويُمسكُ بعصا يحملها معه باستمرار وكأنه يستعد لمعركة معي..

الخبَّاز الملقب بحميدو يرفض أن يبيعني خبزاً، مع أن «الخبز للجميع»، يقول بأنني لا أستحق أصلاً العيش في هذا الحي النظيف الشريف.. فهو لا يريد أن يأكل خبزه الطاهر رجلٌ سيئ السمعة مثلي..

ولكني لو كشفت حقيقة حميدو ستتغير نظرة الناس إليه، ولكن.. من سيصدقني؟

حميدو هذا أشطر خباز في الغش، هل يمكن أن تصدق أنه يضع النشارة في الطحين، ويدعي أنه خبز صحي، وهذه النشارة التي يجلبها من منجرة أخشاب أعرف صاحبها جيداً، يقول لمن يسأله عن سبب تغير شكل وطعم الخبز، بأن القمح غير مقشور.. وهذا أفضل للصحة، ولكنه غال، والناس تدفع الضعف.. وحميدو يرفض أن يبيعني حتى خُبْزَه المغشوش.. يا سبحان الله..

أبو غالي.. صاحب الجزارة الوحيدة في حيِّنا الصغير، يعامله الصغار والكبار على أنه والدهم، ويحلف يميناً مُغَلَّظَةً أن اللحم الذي يبيعه لحم بلدي، وأنه لا يُدْخِلُ اللحومَ المستوردة ولا المثلجة

محله.. ويا ليته كان يفعل ذلك..

أبو غالي، وأنا أقول الحق، ولماذا أكذب؟ رأيته بعينيَّ هاتين يضع اللحوم المثلجة المستوردة داخل ثلاجة المحل.. والناس لا تعرف.. ولكنني تبعته يوماً، فبدلاً من الذهاب إلى المسلخ ذهب إلى مركز للُّحوم المثلَّجة، فهي أرخص بكثير وربحها أكبر.. والناس تأكل من سنين ولا أحد يدري..

أبو غالي عندما يراني أمرُّ قرب محله يبدأ بالسباب والشتم: يا ابن «...»، يا كذا.. يا كذا.. وبصراحة رغبت مرة برد الشتيمة، وحتى ضربه بقبضة يدي.. لكن.. الله يسامحه.

لو أردت أن أخبرك عن باقي أهل

الحي وكيف يعاملونني لقضينا الوقت كله في ذلك..

لكنك قد تتساءل عن سبب بقائي في هذا الحي، بل قل في هذه الزنزانة التي هي أقل بدرجاتٍ من زنزانة الشرطة، وربَّما تتعجب من تحملي كل هذا الألم وهذا النفور وكل الشتائم والسخرية والقسوة..

في الحقيقة هناك أسباب كثيرة.. وأهمها أنني أعيش في بيت أمي التي «انتحرت».. وهل تعلم لماذا انتحرت؟! أو قل «نُحرت»..

أمي ترمَّلت وأنا ما زلت صبياً.. كانت تعمل ليلاً ونهاراً لتربيني..

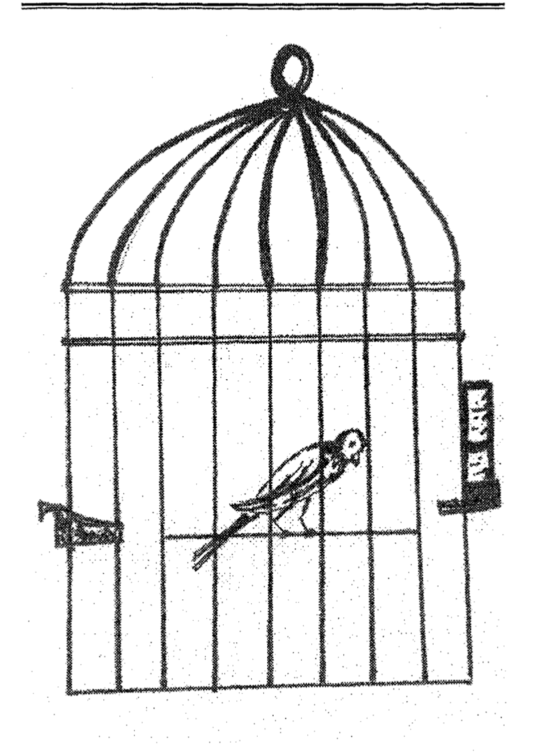
هل تدري أين المشكلة؟

كل من ذكرتُ وغيرهم حاولوا إغواء أمي . .

أتدري ما فعلوا بعدما فشلوا؟!

لقد اتهموها بشرفها . .

شَعَرَتْ بالإهانة . . بجرح في الكرامة، فلم تستطع العيش طويلاً، فماتت من القهر والألم، فقالوا إنها انتحرت، وأشاعوا عنها القصص الكاذبة، وها أنا ورثت الألم الملطخ . . ولكن أين أذهب؟ هذا البيت لا أملك غيره، هو بالنسبة لي زنزانة بلا أرقام . . لن أترك الذكرى الوحيدة لأمي . . وليذهبوا جميعاً إلى الجحيم . . فأمي أشرف منهم جميعاً . .



الأربعون

اليوم فجراً أصبح عمري أربعين سنة . .

فجأة ومن دون مُقَدِّمات، انتبهتُ إلى ذلك، عندما فتحت عيني في الصباح وسألَتْني زوجتي عن اليوم وماذا يصادف، فقلت ببلاهة: لا أدري ماذا تقصدين؟

ذكَّرتني بمصيبتي . .

أربعون سنة . . أربعون سنة، هل كانت زوجتي تدري ما هي الأربعون . . ؟ كانت سعيدة، أهدتني هدية، وعدتني

بقالب حلوى كبير بعد عودتي من العمل وعودة أبنائي من المدرسة..

ياه.. أربعون سنة مرة واحدة.. هل هذا يحتاج لهدية أو لاحتفال، ولطالما استغربت كيف يحتفل الناس بأعياد ميلادهم..

آه لو تعلمين يا زوجتي العزيزة ماذا تعني كلمة الأربعين؟!

لو عَرَفْتِ معناها لما صَنَعْتِ الحلوى التي تعدينني بها، ولا أعطيتني هدية في هذه المناسبة الحزينة..

أصبح عمري الآن أربعين..

أربعون عاماً راحت.. نعم راحت.. وكم أربعيناً يملك الإنسان.. إنها أربعون واحدة بالتأكيد، وبعض من يحالفهم

الحظ ربما يجمعون أربعينيتين، وزيادة، لكن كم نسبتهم، هم قلة، إذن ماذا تعني الأربعون؟!

يعني أن منتصف الطريق وصلتُ إليه منذ زمن، ودخلتُ في العد التنازلي، وما تبقى على غالب النسبة لن يتجاوز ما سبق..

ومع ذلك فزوجتي فرحانة.. نعم فرحانة.. تريد الاحتفال بالأربعين.. والغريب حقاً أن النساء.. نعم، معظم النساء لا يحتفلن بأربعينياتهن وهنّ على رأسها، بل يَبْقَيْنَ يمططن السنين.. حتى تصل الأربعين لحدود الخمسين، فيتم الاحتفال ـ ليس دائماً ـ بمفعول رجعي..

أربعون سنة بالتمام والكمال مرت منذ أن فتحتُ عيني على هذه الحياة.. ومع ذلك أشعر أنني ولدت بالأمس، ما زلت طفلاً مشاكساً يحب اللعب ومغازلة النساء..

وقبل أشهر، نسيت نفسي، ورحت أغازل صبية في الثانوية وربما في المتوسط، بعدما سحرني جمالها بينما كنت أتنزه على الشاطئ... وأيقظني ولدي الكبير من سحرها.. ليخبرني أن عمره يتجاوز عمرها.. بعد اليوم لن أجرؤ على مغازلة الفتيات الصغيرات، لن أظن أنني سآنس بعد الآن، بعد هذا اليوم، وهذا الاحتفال ـ التأبين الذي تزمع زوجتي إقامته عن روحي التي ذهب

نصفها وأكثر ولم يَتَبَقَّ منها الشيء الكثير. .

لكنني لا أريد الاحتفال، من قال لزوجتي إنني أريد الاحتفال، ماذا فعلت لها لتذكرني بشيء لا أذكره؟!

لقد كلفني عمري الأربعون شقاء عد السنين. .

بالتأكيد ستُحضر لي زوجتي شمعة على شكل رقم (40) فهل يمكنها أن تضع أربعين شمعة في قالب حلوى!؟

وإذا كان قالب الحلوى لا يسع أربعين شمعة، فكيف لي أنا أن أستوعب أربعين سنة كاملة، كل سنة بـ 365 يوماً وبضع ساعات. . . فكم مجموع ساعات

عمري.. كم يوماً عشت.. كم أسبوعاً.. كما شهراً.. أحتاج إلى مصنع للشموع.. وربما لن تكفيني شموع الأرض لو حسبنا الأربعين سنة بالثواني..

لتمض الأربعون... وليأتِ ما تبقى.. ولتضع زوجتي ما شاءت من حلوى.. وحتى لو لم يَعُدْ في فمي أضراسٌ طبيعية.



التَّابع

كان يفهم معنى هذه النظرات المتتالية. . لا يظن نفسه خارق الذكاء، لكن إحساسه يؤكد له أنها تضمر في نفسها شيئاً هو إلى السوء أدنى وأَمَرّ. .

مَنْ حوله أيضاً يفهمون هذه النظرات جيداً. . وهم يتجنبونها كما يتجنبون أفعى الكوبرا في الصحراء. .

هوايتها أن تحطم. . أن تدمر. . أن تراقب الآخرين يتألمون. . يبكون. . يصرخون. . . .

هو يعرف كل هذا.. وكان يحتقر ما تقول.. لكنه ضعيف أمامها..

استطاعت بما تملك أن تجعله كالسِّوار في معصمها.. تديره كيفما تشاء.. وما عليها إلا أن تأمر فيستجيب.. يتقبل سَادِيَّتَها بوجه ضاحك وابتسامة عريضة.. ينفذ طلباتها بلذة.. يريد أن يقلدها.. أن يُعَبِّئ كل نقص فيه بممارسة السادية على الأدنى بالأدنى.. وعندما تراه.. تفرح.. تلميذ نجيب، ما أروعهُ.. ويبقى هو نسخة مشوَّهة عنها، أو استنساخاً شاذًّا لورم يتمادى..

يتبعها كظلها.. كطفل.. وهي سعيدة.. تظن نفسها ملكة..

عرفها منذ زمن بعيد.. كثير من

الناس يعرفون كيف تعرَّف عليها وأين ومتى . .

كثير يعرفون هذا الشاب الصغير الذي تخرج حديثاً من الجامعة، وتحديداً من كلية الحقوق . .

لكن . . هل كل من درس الحقوق يطبق ما يعرفه جيداً؟! والناس تعرف أن بَعْضَ المحامين الّذين يعتبرون القانون لعبتهم . . يقفزون فوقه متى شاؤوا وأينما أرادوا . .

سكَّة المحاماة طويلة . . ثم إلى أين سيصل؟! لنختصر الطريق . . فهي فرصة لا تُعَوَّض . .

ترك المحاماة من أجل عينيها . . .

نسي كل ما تعلمه من حق وحقوق..
وضاعت معه حقوق الناس.. بعد أن
أضاع حقه بالحياة..

صارت هي قضيته.. وصار هو نسخة
مشوهة عنها..

لطالما كشفته.. عرفت أسراره..
شهوته.. طمعه.. لكنها لا تتخلى عنه،
بل من أين يمكن أن تحصل على رجل
مثله؟

تمادت في ساديتها معه ومع الأدنى
فالأدنى..

لم يكن يسوؤه ما يراه من جراح..

كبرت.. وكبر معها..

ازدادَ شَرَهُها.. فازداد شَرَهُه..

لم يكونا يشبعان من الآهات التي يسمعانها ويضحكان عليها..

وفي يوم.. صفعته..

كانت تضربه من حين لآخر.. وكان يضحك.. لكنها اليوم صفعته..

مرة رفسته بقدمها على مؤخرته.. فاعتبر ذلك مزحة..

لكنها الآن صفعته أمام من يهزأ بهم.. أمام من يضحك على جراحهم..

دارت الدنيا أمامه.. كانت الصفعةُ مدوِّيةً ومؤلمةً.. صفعته بكل ما تمتلك من قوة..

وكان كلٌّ من حوله سعيداً شامتاً..

مسح خده بيده..

رفع رأسه..

نظر في عينيها..

تطلَّع حوله يراقب العيون التي تنتظر ماذا سيفعل..

عاد ونظر إليها.. وهي أيضاً تنتظر ماذا سيفعل..

حدق بها طويلاً ثم قال:

«عفواً يا آنسة.. أرجو أن لا يكون وجهي قد آلم أصابعك الرقيقة؟»



عيونٌ لا تَنام

جالَت في أمكنةِ الفزعِ . . عانقتْ عرائشَ الصمتِ ، تولَّدت في سَكَناتِها سكراتُ الموتِ ، فاعترَتها قُشعريرةُ البزوغِ في ثنايا الجوعِ والعُري والتمرُّد . .

تفتَّحت مثل وردةٍ . . يُساقُ إليها الماء عذباً بارداً . . لكنَّ الورودَ تنمو في ظلالِ الشوكِ ، فلم تكد تُطلقُ وُريقاتها لتصافِحَ وَجهَ الشمسِ حتى دَهَمَها فيضُ الألم ، ووساوسُ الأملِ المدجَّجِ بالصُّراخِ والعويل .

رَفَعَت يديها تتلمَّسُ طريق النجاةِ. . فجابهتها الريحُ العاتية. . أحنَتْ رأسَها. . لم تكُن تريدُ الانخلاعَ من تُربتِها، بل التخلُّص من قُيودِها الهزيلةِ وعُفونةِ بقايا العابرينَ العابثين.

عَصَبت عينيها. . لا تريدُ أن ترى سنابلَ القمحِ تموتُ ومياهَ النبعِ تتلوَّث، وطيورَ الأرضِ هزيلة. . والفضاءَ يغطِّيه الهواء اللافح المتسمِّم.

قرَّرت الفرار. . أن تخلعَ ساقَها من تُربتِها الَّتي سَكَنَت حبَّاتها وذرَّاتها وشربت ماءها.

قرَّرت النجاةَ بنفسِها. . بعيداً عن الأرضِ التي حَبلَت بها وتنسَّمت هواءها وتعرَّت تحتَ شمسِها. .

أصبحت عيناها باردتين مثل النهر، جامدتين مثل الصخر. تعيش الآه، تعيش الجرح.. ولا يزال الجرح يسيل..

تكاثرت من حولها أروقة الذل وسراديبها.. وازدادت أسواط القسوة وجلادوها.. تناثرت أوراقها الربيعية كما تتناثر أوراق الخريف الصفراء.. هياءاً منثوراً.

خلعت ساقها وألقت بنفسها في شلال النهر البارد.. قذفها الشلال، والشلال صخري لا يرحم، والورود ناعمة لينة، فهي «الوردة» ـ أو ما تبقى منها ـ تقاوم اندفاع الماء الهادر.. وتتقلب فوق الصخور كريشة في يوم عاصف.. فتكسرت ساقها.. وتقوست أطرافها..

وتحطم ما فيها من بقايا جمال وريح طيبة.. ولم تكن تدرك فداحة العاقبة..

وهناك، في مكان بعيد.. وجدت أشلاءها مبعثرة، لَمْلَمَتْها، ضَمَّتْها بلطف وحنان، أعادت تجميع أوصالها المشوهة، وكانت أي شيء سوى وردة..

ومن طول أيام القسوة والسهر، تناست شيئاً اسمه النوم، فكانت عيناها لا تنام، تحلم بتلك التربة الخصبة، وهي بعيدة بعيدة، لكنها تراها كما ترى النجوم في ليلة مقمرة صافية..

لم تستطع غرس ساقها في تربة جديدة.. هي مثل سمكة لا تعيش خارج الماء..

تملَّصت من كل عذابات الماضي. .

تَمَتْرَسَتْ خلف أجنحة الأحلام التي حاولت التحليق لكنها لم تستطع، فالأجنحة المتكسرة لا تعرف الطيران في فضاء متسع الأرجاء، ويكفيها البقاء على تربتها. . مع كل قسوتها وتمردها. .

خلعت ساقها وفرَّت. . نسيت أن تخلع أشياء أخرى، كانت على عجلة من أمرها. . والجنون يكسو رؤوس الجبال ويكللها. . تماماً كما يكلل الثلج الأبيض القمم العالية. .

وتماثلت للشفاء. .

عانقت من جديد الريح، علَّها تجد في ذراتها نسمةً مرت من هناك. . فتحت

ثوبها للمطر.. ربما نقطة ماء جاءت من هناك حملتها غيوم السماء..

فجأة قررت العودة..

أخذت قرارها دون مشورة أحد..

جراحها لم تلتئم تماماً بعد..

كسورها لا تستطيع مجابهة الماء المتدفق من النهر..

ومن ذا الذي يستطيع خوض غمار النهر والسباحة صعوداً نحو قمة المنحدر ومعاكسة الشلال واندفاع الماء بقوة عشرات الأحصنة الأصيلة..

ورغم هذا اتخذت قرارها بالعودة... أو بالانتحار.. فلا فرق..

تملصت من كل التماساتها

وتضرعاتها . .

غابت عكس تيار النهر . .

غاصت . .

تدافعت . .

ناطحت الموت والموج سواء . .

ولم يأت من يخبر الناس عنها . . ولم يجدوا منها خبراً . .

كأنها ذابت في الماء المتدافع في النهر . . الآتي حتماً من نبع يتدفق من التربة القديمة التي انتزعت منها .



سِرُّ الباب المُوصَد

في حارتنا القديمة؛ حيث تنام النجوم ويرقد القمر، أبواب لا توصد، أصحابها يبقونها مشرعة على الدوام.. تستقبل الريح.. تتقلَّب على حرقة الانتظار وشعاع الأمل.. والموتى كما هم.. أجساد بلا روح.. وأطراف بلا حياة..

الأبواب كلها تنتظر قدوم المستحيل.. تزرع في خيالاتها فضاءات المنارات المنحنية المقوسة لتقبل الأرض..

تهتز الأبواب.. تسمع صريرها

العاصف كالإعصار.. تشدك حيث أزمنة اللهب المشغول كالذهب المتناهي في الدقة..

حكايات كثيرة تحكيها الأبواب.. تروي ذكريات محفورة في خشب السنديان وجذوع النخل، والبَوْحُ مسكون بغلالة شفافة لا تفقه ما يكون.. مثلما تجهل ما هو كائن في زمن الأبواب المشرعة..

باب واحد فقط.. تجرأ على السير على خط مختلف..

الباب مُوصَدٌ بقفل كبير.. محكم الإغلاق..

الباب الوحيد الذي له قُفْلٌ..

فالأبواب التي في حارتي القديمة لا تعرف الأقفال، كأنها صنعت للزينة لا لحماية سكانها.. والبيوت هناك تضج بساكنيها.. إلا ذلك البيت الساكن.. الغارق في أُمْسِيات الرحيل بلا انقطاع، والعارف لكل خفايا العودة بلا أمل..

لم يشغل أحد نفسه بهذا الباب..

رغم أن الحارات القديمة تبحث عادة عن كل ما يخالف أعرافها.. فالعادات التي خلف الأبواب لا تقلق ساكنيها.. ومع ذلك فكل الأبواب مفتوحة إلا هذا الباب الذي يبدو أنه لم يُفتح منذ سنين طويلة..

منذ صغري والباب موصد بالقفل.. لكن القفل لم يصدأ، لم يتغير شكله،

العريشة الخضراء تزداد نماءً واخضراراً. . تدور حول البيت. . تزينه بالحياة. . وهو واجم. . قابع بسكون. .

الناس في الحارة لا يتكلمون عن هذا البيت وبابه الموصد، تظن الحارة مهجورة منذ سنين، والبيوت خالية، تركها أصحابها مشرعة الأبواب. . ويبدو بيت الباب المغلق شاذًّا عن كل البيوت. .

الأطفال الصغار لا يدنون من البيت المغلق الباب والنوافذ، ولا يتسَّورون حيطانه ليكتشفوا سره وحكاياته. . ولو وقعت كرة يلهون بها في ساحته الداخلية. . يتركونها ويهربون. . ويعودون إلى بيوتهم المشرعة الأبواب بلا اكتراث

ومبالاة..

كنت أحلم أن أملك مفتاحاً سحرياً يدخلني إلى هذا البيت المبهم..

أبواب الحارة ونوافذها المشرعة تجعل الناس يعيشون فيها كأهل بيت واحد.. فالكل يعرف تفاصيل البيوت الأخرى.. حتّى عدد الأسرَّة والملاعق والشوك والسكاكين..

الكل ينبئك عما في الحارة من مقاعد خشبية وجلدية..

البيوت بلا ستائر.. بلا زجاج داكن..

وكنت أعجب لماذا يضعون لها حوائط.. ليصنعوا البيوت من الزجاج.

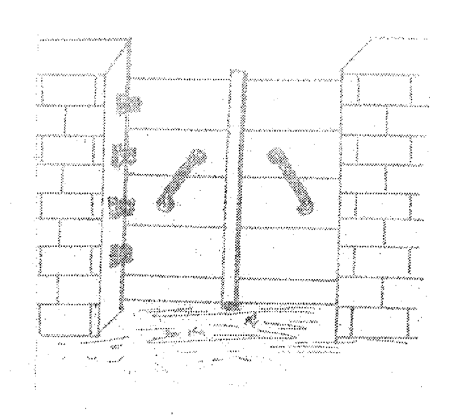
وحده هذا البيت كان له باب موصد.. ونوافذ مغلقة.. وأسرار تسوِّره.

وددت لو أقتحمه.. أكشف خباياه «المحرمة».. وأهتك سرابه المحكم الإغلاق، لكن أمنية واحدة لم تتحقق، لم أجرؤ على الاقتراب منه، أو على التحديق في غرائبه..

تركت الباب وسرّه..

تركت الحارة وأبوابها المشرَّعة..

ورحلت إلى أماكن كل أبوابها مغلقة.. وكل نوافذها مسدلة الستائر.. وبقيت أحلم بالباب الموصد وسرّه..



المتشردُ الفيلسوفُ

في كل مرة يصمم فيها على تسوية قضاياهُ المعلقة والمؤجلة منذ زمن، تطرأ مشكلات جديدة تجعله يفقد تصميمه بسبب العجز عن حلحلة القديم منها.

يرى الزمان معانداً له دون سبب، لكنه لم يَشْتِمِ ظروفه يوماً، بل يستمد من جراحه المتواصلة مثل مسلسل ماكسيكي شموعاً يستدفئ بها في لياليه الحالكة الشديدة البرودة.

نفث دخان سيجارته ذات التبغ الرديء في صفحة جريدة قديمة وجدها

مرمية على الطريق، وفي جوانبها بصمات أقدام لا شكل لها..

«المشكلات عندما تتعرف إلى إنسان تتشبث به، وتمسكه كموادّ شديدة الالتصاق، وتنقله من مشكلة إلى أختها..».

كان يشرح واقعه لماسح الأحذية.. يفلسف الأمور.. يحاول التخفيف عن نفسه بقليل من الثقافة التي حصل عليها من الكتب الممزقة التي يسلي بها تشرده في الأزقة والشوارع..

لم يكن يوماً بوهيمياً، لكن البوهيمية كانته على غير رغبة منه، مثل أشياء كثيرة قادته إلى عوالم مجهولة الانتماء.. مجهولة الحياة.. مجهولة الأهداف..

هرب إلى زحمة الشوارع الفقيرة، والزوايا الملأى بأمثاله.. الذين يعتبرهم الناس شراً يجب استئصاله.

«لو أستطيع الإعلان عن جمهورية المتشرِّدين.. لما تأخرت لحظة واحدة».

هكذا خاطب واحداً كان يهم بمد يده إلى حاوية للنفايات يبحث فيها عن «حظه» الذي هرب منه.. في الأماكن النظيفة..

«ما كنت مشرداً.. لا ولن أكون، تلك الأوهام التي تكلل حفاة الأزقة ليست صنيعة الحقيقة، هم يحلمون مثلي أنا.. ألم تكن أحلامي كبيرة مثل السماء.. ألم تكن «هي» حلمي الأكبر..؟».

«ربما لو درس الفلسفة لكان فيلسوفاً. .» قالها متشرد لآخر ساخراً منه ومن كل المشردين أمثاله. .

متشرد آخر صرخ بانتظار الفاتحين: «يا لحظّي السعيد، بذلة كاملة. . وربطة عنق أيضاً. . غنيمة حاوية النفايات غنية اليوم. .».

البذلة كانت بالية وملطخة بالأوساخ. . وربطة العنق كأنها. . مضغة. . ومع ذلك ارتداها على حالها. . فهي مهما كانت أفضل بكثير من الثياب التي كان يرتديها.

كيف قادته قدماه إلى هذا العالم؟

هو دَرَس الفلسفة فعلاً، المشردون يتكلمون كما يشاؤون. . .

ومن يحاسبهم؟.. فليتكلموا كما يشاؤون.. جمهورية المشردين أساسها «الحرية بلا قيود»..

هو لا يفلسف الأشياء، فالأشياء كما يقال: فلسفة لوحدها.. «ذلك الرجل المسن.. ذو اللحية الطويلة؛ فيلسوف حقاً، يعرف النجوم وبريقها.. ويفسر لك أحلامك وأنت مستيقظ».

«هذه الأزقة علمتني الفلسفة الحقيقية.. كل الذين كنت أتفلسف معهم هجروني منذ أول مشكلة.. وهذه هي فلسفتهم.. بينما هنا، في هذه الشوارع المظلمة النتنة يتقاسمون قطعة لحم نيئة مع القطط المشردة.. يطعمون دود الأرض خبزاً يابساً عفناً وجدوه في

حاوية. . هنا الفلسفة الحقيقية».

كان يُردِّدُ ذلك ولا أحد يفهم من كلامه شيئاً واحداً، ألقته الأيام بينهم دون استئذان. . هرب من كل «الفلاسفة» إلى فلسفة جديدة كان يشاهد مثلها في التلفزيون ويعتقد أنها مجرد قصص وأفلام ليسَت حقيقيَّة. .

هنا تعلم مسمَّيات جديدة مجهولة، ليست موجودة في الكتب، هذه المسميات تحفل بمعانٍ كثيرة لا يعرفها كثيرون ممن كانوا معه.

«ترى لو عدتُ إليهم هل سأخبرهم بهذا الواقع؟!».

ويستدرك نفسه قائلاً:

«ولماذا أخبرهم..؟ من هم لأخبرهم بأشيائي.. بأحلامي.. بفلسفتي الجديدة.. فلسفتي المُجَمَّلة.. لا تلك الفلسفة القبيحة..؟»..

بدا له أن العالم كله تَقَزَّم حتى أصبح أصغر من حبة رمل تحت حذاء متشرد مجهول، فهو في تفكيره يبتعد عن واقعه حتى يقترب إليه أكثر من الجهة الأخرى، كأنما يدور فاراً ليعود من الجهة الثانية.

حتى الظروف التي تحيط به تفلسف الأحداث وتنميها..

«أنا لم أهرب من وجه مشكلاتي.. بل هربتُ إلى مشكلاتي..».

ماسح الأحذية يظنه يهذي.. لا يفهم

كلمة واحدة مما يتفوَّه به..

يقول: «هل أمسحُ حذاءك يا صديق؟»..

«دعه.. لا فائدة..».

يضحك ماسح الأحذية.. يحمل صندوقه على ظهره.. وينطلق نحو الأمل.. بلا فلسفة.

ويعود «هو» يبحث عن شيء ما.. عن جسد ما.. عن أمر يعيد إليه بعض الأمل، بعض الحياة..



حالةٌ مُستَعْصِية

جلسَ في مقعدِهِ. . رَبطَ الحزام فور جلُوسِه، هذه عادة متأصِّلة فيه، ما أن يدخل الطائرة، يمسك الحزام ويربطه بإحكام، ويظل جالساً طوال الرحلة ولا يحل الحزام إلاَّ إذا أراد دخول المرحاض، وغالباً ما يقاوم نفسه حتى تصل الطائرة إلى المكان المقصود.

عشرات الرحلات على متن خطوط الطيران العالمية لم تزده إلا خوفاً، فهو مثل ملايين الناس في العالم تصيبه حالة رعب من ركوب الهواء، لكنه غير قادر

على السيطرة على نفسه. والسفر في البر مشقَّة لا يستطيع جسدُه النحيلُ تَحَمُّلَها، وهو رجل مرفَّه، لم يعتد على الإرهاق الشديد، كما أن الوقت مهم جداً في حياته، ورحلات السفر ضرورية، وأغلبها للعمل، فلو كانت الرحلة للسياحة أو للاستجمام، لكان اسْتطاعَ التَّنَصُّلَ منها وقضاءَ عُطْلَتِهِ في أماكن قريبة يمكن الوصول إليها بالسيارة.

ربط الحزام بشكل محكم.. وركاب الطائرة لم يكتمل عددهم بعد..

مقعده غالباً بعيد عن النافذة، ولو صدف غير ذلك فإنه يغلق ستارة النافذة ولا ينظر منها على الإطلاق، رغم أن بعض المسافرين يُصِرُّون على الجلوس

قرب النافذة، ليتأملوا العالم من «فوق». . أما هو فلم يكن بحاجة للنظر من هذا «الفوق»، لأن التصاقه بالأرض أكبر من أن يقاوم، حتى إنه لو سمع صوت طائرة وهو يسير في الطريق أو يجلس على الشاطئ لا ينظر إليها أبداً. . فقلبه ينخلع من مكانه عندما يفكر أن الطائرة تسبح معلقة في الهواء. .

عندما يركب الطائرة يطرد من رأسه كل هذه الأفكار، ويتخايل الطائرة عبارة عن باص كبير يقطع إحدى الطرق السريعة، لكن المَطَبَّاتِ الهوائية تذكره دائماً بأنه لا يحلم. .

وفي كل مرة. . عندما يشعر بصدمات الهواء، يقول في نفسه: «هذه هي المرة

الأخيرة.. وكفى..».

ما أن أعلن قائد الطائرة الاستعداد للانطلاق.. صارت قدماه ترتجفان ولسانه يردد الأدعية التي حفظها من كثرة ترديده لها..

إلى جانبه جلس طفل في حدود العاشرة..

نظر إلى الرجل نظرة استغراب..

لم يكن الرجل أصلاً يعبأ بمثل هذه النظرات، ففي كل سفرة يشاهد مثلها.. فليس هذا بجديد.. كما أن حالة الخوف التي تسيطر عليه تجعله في عالَمٍ غير عالَمِ ركَّاب الطائرة..

الفتى الصغير لم يتمالك نفسه..

والأطفال عادة يحبون الهزار..

انفجر الصبي ضاحكاً حتى لاحَظَ ذلك الركاب من حوله رغم هدير محركات الطائرة المرتفع لحظة الانطلاق..

ظل الرجل يرتجف ويردد الأدعية حتى ارتفعت الطائرة واستوت على الهواء، فهدأ قليلاً بعد أن أحضرت له المضيفة كوباً من الماء..

والصبي الجالس أمامه ما زال يثيره المشهد.

تأمل الصبي وجه الرجل.. راح ينظر إليه بإمعان.

لاحظ الرجل اهتمام الصبي به..

ابتسم.. حاول أن يظهر بعضاً من تمالك الأعصاب.. لكن حالة الخوف التي تنتابه أقوى منه ولا يستطيع السيطرة عليها.

أخرج الصبي من حقيبة صغيرة معه ألبوم صور..

طلب من الرجل أن يشاهد صور رحلاته السابقة..

أخبره أن أسرته مسافرة معه على متن الطائرة نفسها، لكنه يفضل الجلوس في مقعد منفصل عنهم.. يحب التعرف دائماً على وجوه جديدة..

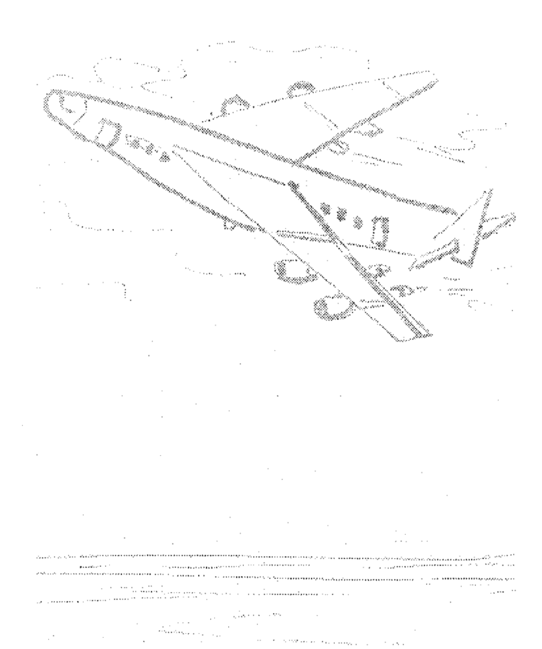
بدا الطفل ودوداً جداً.. وكان الرجل مسروراً بالإنصات إليه..

لو تزوج مبكراً لكان عنده ابن في مثل سنِّه. . لكنه كما يخشى ركوب الطائرة، فإنه يخشى الزواج ومسؤولياته، بل على العكس، فإن ركوب الطائرة أرحم من ذلك عنده.

تمنى لو كان هذا الصبي ابنه. . لو كان له ولد مثله. .

حقق نجاحاً كبيراً في عمله. . لكنه ما زال يخشى السفر. . ويخشى الزواج. . صارت أفكاره تدور وتضطرب. . والصبي يتكلم وهو لا يسمع. . اقتربت الطائرة من مكان هبوطها. . طلب قائد الطائرة ربط الأحزمة. . لا يهم. . هو في الأصل لم يفك حزامه بل أحكمه أكثر. . وهو يقول في نفسه: «آخر مرة. . هذه السفرة

لن تتكرر.. لن تتكرر..». وعاد الطفل يضحكُ والرجل يردد الأدعية وقدماه عادتا ترتجفان بينما الطائرة تهبط بسلام..



القهوة والنشرة الصباحية

«لست اليوم في مزاج طيب.. الأخبار التي سمعتها وأنا أشرب قهوة الصباح المرة جعلتني أشعر بأني حشرة، بل أقل من ذلك بكثير..».

يضحك صاحبي كأنه لم يضحك من قبل: «حشرة.. حشرة.. إذن اِحذر المبيدات..»..

ـ «لا تستظرف نفسك.. كم أكره نشرات الأخبار... وخصوصاً الصباحية»..

ـ «الحشرات يا صديقي أهم أسياد العالم بامتياز.. أعدادهم مليارات المليارات.. تصور لو كبر حجمهم قليلاً.. تصور!!»..

ـ «دعك من الهزل.. ألا تستطيع أن تكون جدياً مرة واحدة؟»..

ـ «كيف أكون جدياً وأنت تعتبر نفسك حشرة.. ما أنا إذن.. صرصور..؟»..

ـ «أرجوك.. أنا لست في مزاج ليتقبل مزاحكَ الثقيل»..

ـ «آخٍ منك.. هذه أول مرة تشاهد فيها أخبار الصباح؟! يا لك من حساس وشاعر!».

تركت صديقي.. مشيتُ وحدي.. لا

أقوى على سماع تعليقاته وردوده السخيفة.. أشعر بالغثيان.. بالرغبة بالتقيؤ.. بالاستفراغ على هذا العالم..

مشيت طويلاً.. لم يزدني المشي إلا مَلَلاً.. حاولت الترفيه عن نفسي بقراءة الإعلانات المرصوصة على جانبي الطريق.. الإعلانات تكاد تلتهم الأرصفة.. الناس يسيرون مسرعين.. لا يعبأون بي ولا بغثياني.. إخالهم لو قلت لهم ما قلت لصاحبي.. لتَفَتَّقت لديهم قريحة الضحك ولأعادوا الأسطوانة عينها..

ـ «الناس تموت.. وأنت تضحك؟!»..

ـ «وماذا تريدني أن أفعل.. هل

تريدني أن أموت معهم أيضاً؟».

هو مُحِقٌّ بكلامه.. وأنا المخطئ.. الأخبار النهائية تصلني دفعة واحدة، فأنا نادراً ما أسمع نشرات الأخبار.. لم أقرأ الصفحات السياسية في الجرائد منذ سنين.. أليس ذلك غريباً وأنا من بلد مشهور بالسياسة والسياسيين، حتى الأطفال يتحدثون فيه أيضاً بالسياسة..

الأخبار تصلني متأخرة.. وعندما أتأثر بها أجد الناس قد تأثروا بها وانتهى أثرها فيهم منذ زمن بعيد..

ولا شك أن الناس متفاوتون بالتأثر، ولكني سريع التأثر، لذا لا أتابع الأخبار إلا من فترة إلى فترة، والأخبار المهمة أسمعها من زملائي بالعمل وهم يتحدثون

عنها.. ألم أقل قبلاً إنني من بلد الناس فيه كلهم يتحدثون بالسياسة..

ـ «لا يهم.. ألا تعمل جيداً.. ومدخولك جيد.. ما لك ولهم.. لا تتعب رأسك»..

قالها صاحبي كأنني مررت بسيارتي على قطة في الطريق...

ـ «وحتى لو كانت قطة يا عزيزي.. سأبكي عليها من كل قلبي»..

ـ «مسكين هذا القلب ماذا سيتحمل ليتحمل..»..

ـ «الناس يموتون على أبواب المستشفيات»..

ـ «أخبارك قديمة أعطني أخباراً جديدة»..

ـ «يا لك من صديق ميت القلب.. اذهب عني.. اذهب..»..

ـ «وأنت.. يا لك من صديق رقيق القلب.. ضُمَّني.. ضُمَّني..»..

ـ «أووف.. ألن تتوقف عن السخرية..».

صوت صاحبي ما زال يصدح في أذنيَّ.. يقرع فيهما مثل مطرقة حداد محترف لا يبطل عادة طرق الحديد من الصباح حتى المساء، وفي الليل يسمع زوجته وأولاده لحناً جديداً يعزفه بالمطرقة..

(حتى أنا مع كل الحزن الذي أعيشه والامتعاض الذي أنا فيه تتوارد إلى ذهني أفكار ساخرة).

«توقف عن السير والهرولة.. لقد أتعبتني.. فكر بي وبالوجع الذي تسببه لي أفضل من أخبارك التي توجع القلب».

(كيف أتتني هذه الأخبار فجأة؟! أين كنت؟!

ربما لم أكن أسمعها بالطريقة التي أسمعها اليوم؟!

لم تكن تصل إلى نفسي كما وصلت اليوم؟!)..

ـ «غدا ستنسى كل هذه الأخبار.. هيا نذهب الآن لنلعب بلياردو»..

ـ «بلياردو.. بلياردو.. أين أنا وأين أنت؟»..

ـ «وماذا بعد؟! لقد تعبت من الركض وراءك». .

ـ «من طلب منك ذلك؟! عد. . عد. . لا تتعبني. . أريد أن أكون لوحدي». .

ـ «لتفكر بالأخبار؟؟ يا لك من مراوغ. . أظنك على موعد مع فتاة جديدة لا تود الإفصاح عنها. . لا بأس. . لا بأس. . غداً سأكتشفها يا صاحب المغامرات المشهورة». .

(حتى أنت يا صديقي تقف ضدي. . حتى أنت تشعل سخريتك في نفسي. . أكثر من الحرائق التي أشعلتها نشرة الصباح). .

«لقد نصحتك من قبل.. لا تستمع إلى نشرات الأخبار.. افعل مثلي.. ما بها برامج الغناء.. وأخبار المطربين والمطربات..؟ أخبارهم حلوة وجميلة.. وليست مثل أخبارك التي تتعب القلب»..

(يظل صاحبي على سخريته.. وأظل صامتاً على حنقي وغضبي...

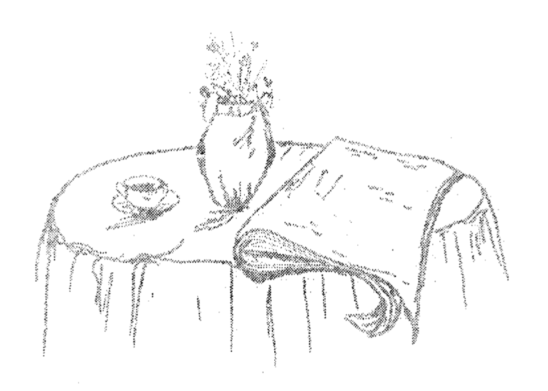
لكن أليس ما يقوله صواباً؟! حتى الموتى أنفسهم قد لا يبالون بغيرهم لو عادوا وتناولوا رغيفاً وناموا على شبع..)..

ـ «وفِّر غضبك وتفكيرك لعطلة نهاية الأسبوع، نريد القيام برحلة غير تقليدية»..

ـ «أعتقد أنك تريد المشاركة بالماراتون.. أليس كذلك؟»..

ـ «هل تشعر أن وزنك أصبح زائداً.. وتريد إنقاصه بالرياضة؟».

(ظل صاحبي يطرح تعليقاته وأسئلته السخيفة وتابعت المشي.. عَلَّني أنسى نشرة الصباح).



جمعان الوردي

الفرصة قد لا تتأتى إلا مرة واحدة، وعندمَا تسنَح لك هذه الفرصة اغتنمها، اقتنصها، لا تُدْبِرْ عنها، وتُمَنِّي نفسك بفرص أفضل، فالذي يأتي ويذهب لا يعود..

وللأسف، فإننا بلا استثناء نبقى طوال حياتنا نترقب الفرص الكبيرة، وعندما نراها وتصبح بين أيدينا جاهزة، نبدأ بوضع العلل، وتتكبر أنفسنا عليها، وننسى أننا لهثنا وراءها، وحفيت أقدامنا

حتى وصلنا إليها، وأصبحت حقيقة بعدما كانت حلماً.

السيد جمعان الوردي ابن قرية اسمها «ورد»، لشهرتها بإنتاج الورود من كل الأشكال والأنواع والأحجام، على درجة عالية من الثقافة والعلم، بذل عمره في دراسة تاريخ الورود وأنواعها حول العالم، حياته في قريته، جعلته مغرماً بالورود، بل يطير هياماً بها، يعرف كل وردة من ورود قريته باسمها ومكانها، حتى متى ولدت ومتى تموت..

السيد جمعان كان مع ذلك فقيراً، لا يملك مثل معظم أهل القرية ولا حتى بستاناً واحداً للورود، بل كان من فرط حبه للورد، يطلب من أصحاب البساتين

أن يسمحوا له بقضاء وقته في بساتينهم، وأحياناً ينام قرب وردة جميلة أو برعم جديد ترقباً للحظة تفتحه.

اشتهر السيد جمعان..

أصبحت القرية التي تمتاز بورودها.. تمتاز أيضاً بابنها جمعان.

ولم يكن جمعان الذي تجاوز الثلاثين قد تزوج..

كان أهل القرية البسطاء يستشيرونه في كثير من الحالات، كان يساعدهم؛ يداوي ورودهم إذا مرضت.. ولم يكن يطلب أجراً.. كانوا يطعمونه أحياناً وأحياناً ينام جائعاً.. ربما كانت نسائم الورود تطعمه وتسقيه، تشبعه وترويه.

قلت إن السيد جمعان أصابته الشهرة في قريته والقرى المجاورة..

وكان البعض يستدعيه لرعاية ورود بساتينه.. لكنه لا يحب مغادرة القرية والعيش خارجها.. وعند الإصرار، يخرج من قريته سويعات قليلة.. خاصة إذا سمع عن بستان ورود نادر، أو مرض يصيب الورود يحتاج لخبرته.. وكان يحصل لقاء مساعدة الآخرين على كتب يطلبها تتناول ما يختص بعالم الورود.. وثناءٍ محدود..

عاش السيد جمعان وروحه معلقة بالورود..

كان الناس أحياناً يسخرون منه.. يضحكون منه في سرهم وعلنهم.. رغم

كل الخدمات التي يقدمها لهم دون مقابل يذكر..

لم يكن السيد جمعان سعيداً بما يراه من جحود أهل قريته، لأنه أصلاً لا يعبأ بهم، ما يشغله وردة هنا.. وزهرة هناك.. وبرعم يتفتح.

جمعان لم يكن هامشياً.. لم يكن مجرد مهووس بالورود.. جمعته هوايته التي وصلت إلى حد الجنون بفتاة تشبه الورد.. وهي أيضاً مولعة بالورد.

طلبها من أبيها.. طرده من بيته.. كيف يزوج ابنته بشاب مهووس مجنون؟

لم يتقبل هذه الإهانة..

لقد كان شاعراً.. رومانسياً.. كيف

لا يكون كذلك وهو يعيش وروحه معلقة بالورود.. وقلبه ينبض مع الرياحين..

بكت الفتاة.. لم تنفعها دموعُها..

والدها لم يرفضه لهوسه بالورود.. بل رفضه لأمر آخر.. فهو فقير ابن فقير..

لقد قلت قبلاً إن جمعان اشتهر في قريته وفي القرى المجاورة.. وقد تَعَدَّتْ شهرتُه إلى العاصمة.. وكانت بعض كبريات الشركات المهتمة بالورود قد استدعته للعمل عندها.. لكنه كان يرفض.. «فقريتي قبل كل شيء..».

هزيمته بالحب.. جعلته يائساً..

هنا.. جاءته فرصة..شركة ورود

عالمية تدعوه للعمل لديها مقابل أجر كبير..

ذهب إلى والد الفتاة.. «سأكون قريباً صاحب ثروة.. وأغنى منك».

طرده الرجل.. لم يعبأ به..

غادر جمعان بلده.. عاش سنوات.. عمل من أجل الورود بأجر.. صار يعمل دون حب.. أصبحت الورود مجرد صنعة.. مهنة.. فقدت كل الهوس.. ما عاد يريد العودة إلى قريته.. صار غنياً.. نسي فتاته التي أحبها..

ما عاد يفكر بقريته.. أصبحت آخرَ هَمِّهِ..

وكذلك الورود.. لم تعد حياته ولا روحه..

تعرف على أشياء كثيرة كان يجهلها.. تلك البراءة المسكونة بالسذاجة تدهورت عند «الفرصة» الكبيرة التي جاءته دون أن يحلم بها، فكل أحلامه كانت تتوقف عند حدود القرية..

أهل الفتاة زوجوها رجلاً غنياً..

ورود القرية ما زالت تنمو دون أن تسأل عن حبيبها القديم..

لقد أخذ فرصته عنوة عنه..



حبٌّ وخيانَةٌ

استقرَّ في اعتقادِها أنَّها فَقَدَتْهُ..
وَليسَ هناكَ أملٌ في استرجاعِهِ..

الفُرصةُ الوحيدةُ التي توافرتْ لعودتِهِ إليها نفدتْ دونَ ملاحظتِها، بل بعدَ أيامٍ من نفادها؛ انتبهتْ إلى ضياعِ آخرِ الاحتمالاتِ الممكنة..

ورُغمَ ذلكَ لم تيأس، كانتْ تمتلكُ كل أشكالِ التحمُّلِ والتمرُّد.. تدربتْ على تنشُّقِ الصعاب.. تعلَّمت كيفَ تدوسُ على الأشواكِ لتعبرَ ساحاتِها،

فهي تؤمنُ أن ما مِن أكمَةٍ إلا وراءها سهلٌ منبسِط.

لكنَّها هذهِ المرَّة في أصعب موقفٍ يمكنُ أن تواجهه..

الرجلُ الوحيدُ الذي آمنتْ بهِ، وصدَّقته.. ووثِقَت بما يضمرُ من كفاحٍ وصراعٍ وسعيٍ نحو العلاء.. مستقرٌّ الآن في غرفةِ العنايةِ المركَّزة..

الأمرُ أكبر من قدرتها على التحمُّل.. هذه المرة الأكمة ليس وراءها سهل..

لم تكن تدركُ أنها ستفقدهُ إلى الأبد.. علاقتهما كانَت أحياناً متوتِّرة، لكنَّها لم تصِلْ إلى حدِّ الفراق.. لكنَّه قبلَ الحادث الذي أوصله إلى العنايةِ

المركَّزة، طردته من البيت، لم تعتقد لحظة أن هذا المارد الذي آمنت به سوف يخذلها.. سوف يلقي بنفسه ثأراً لكرامته.. أو لخيانته؟

تنازعتها أنيابُ الآلام الحادَّة..

«كيف تجرَّأت على طردِهِ وخذلانه؟!».

«كيف تجرد قلبي الذي يحبه من كل الرحمة به، وعندما حانت الفرصة ليعود.. عندما اتصل ليعتذر.. استخدمتُ أبشع الألفاظ المهينة بحقه.. وكسرتُ سماعة الهاتف؟!».

أشباح الهموم لم تنفك تدور حولها وتهيج كيانها، وترسم في أفكارها ألواناً من التردي في أعماق الهاوية..

«كرامتي لم تسمح لي بتقبل خيانته.. الحب الكبير الذي في قلبي اشتعل وانفجر كبرميل بارود..أصبحت لا أرى غير الخيانة.. لم أستطع مسامحته رغم كل التوسلات..رغم ما ذكرني به بأيام جميلة ماضية.. لقد كان الألم أكبر مني..».

الرجل المسجى على السرير بلا حراك.. لولا حركة مؤشر القلب التي تظهر على الشاشة قرب سريره لما دلَّ شيء على أن فيه أي أثر من حياة..

الحالة كانت منتهية.. لكنَّها تَوَسَّلتْ للأطباء.. ركعت أمامهم..جثت على ركبتيها ليساعدوا «حبيبها»..نسيت كرامتها.. وجراح كبريائها، ونسيت

خيانته.. وكل ما سببه لها من آلام.. تريده أن يعيش..ولو للحظات حتى يسمع قولها بأنها صفحت عنه..

لم تكن تدرك أنه يحبها إلى حدود الموت.. فالخيانة لم تكن عنده إلا نزوة.. أما هي، فقد كانت قضيته.. حياته.. مستقبله.. وكان كلامه السابق وتأكيده بأنه لن يفرق بينهما غير الموت، خالياً من النفاق.. لكنه أخطأ، وأي رجل لا يخطئ؟ قد تكون الأخطاء متفاوتة، لكن على العموم فإن الخطأ لا يقاس بحجمه بل بمفعوله وتأثيره، وكأنه أراد أن يكفر عن هذا الخطأ، أن يضع حداً لتلك المشاعر القاتلة التي انتابته وجعلته كياناً مدمراً، خالياً من الحياة.

لم يستطع إقناع نفسه بكَبْحها عن الانتحار.. لقد كان حبه أقوى رغم خيانته، لم يسامح نفسه، شعر بالذل والانهيار، كانت عواطفه تلتهب بنيران جراح لا تلتئم، يسكب عبراته بلا انقطاع.. كان مختلفاً، في وقت باتت الخيانة فيه أمراً عادياً، وبات كثير من الرجال، وقليل من النساء يتبجحون بعلاقاتهم الغرامية المتعددة، ومنهم المتزوجون.. هو سقط ضحية نزوة عابرة، لم يستطع أن يخفيها عن زوجته، الارتباك سيطر عليه، وشعوره الشديد بالذنب فضحه، وكأي امرأة ثأرت لكرامتها.. لم تترك مجالاً للنقاش، وكان هو مستسلماً مقرّاً بالخطأ الجسيم

الذي اقترفه، ولم تستطع الأيام أن تهدئ من ثورتها.. بل كانت تزداد حدة وقسوة كلما حاول الاتصال بها والاعتذار..

ودَّع حياته القصيرة.. لم يبالِ بالموت.. بعاقبة الانتحار.. استولت عليه الحيرة وجنون الخيانة.. والأطباء يؤكدون موته.. وهي تتوسل إليهم إنقاذه من الموت الذي ينتظره.

حالةٌ فوضويَّةٌ

حالة الفوضى التي يعيشها متأصلة في نفسه، طبيعة خاصة تجعله شكلاً طبيعياً من أشكال الفوضى والاندماج فيها والذوبان في تفاصيلها حتى لا يعود قادراً على التملص منها.

منذ طفولته والفوضى تتبعه في حِلِّهِ وتَرْحاله، ولا يكف عن بعثرة المكان الذي يوجد فيه، ويحوله من حالة إلى حالة..

في مدرسته كان الفوضويَّ رقم واحد..

في العمل خسر ثقة الجميع.. ولطالما بدَّل مكان عمله، تارة يعمل في أعمال يدوية، وأحياناً في أعمال مكتبية..

جرَّب كل شيء.. حاول مرات ومرات.. لكن حالة الفوضى المسيطرة على طبيعته كانت تغلبه وتقوده إلى الفشل في كل خطواته.

استنزف طاقاته ليتخلص من حياة فوضوية باتت تشكل تدميراً تاماً لشاب في مقتبل الحياة..

ظل يقاوم نفسه.. يقاوم فوضويتها.. لكنها كانت أقوى منه، هو هكذا.. الفوضى جزء منه، مثل يديه وعينيه ورئتيه.. هل يستطيع أن يستأصل رئتيه؟!

أخيراً قرر أن يحب الفوضى ويتآلف معها.. ما دام لا يستطيع التخلص منها فمن الأفضل أن يوطد العلاقة بها، ويخلص لها وتُخْلص له.. ومن يريده عليه أن يقبله على علاته.. وعلته الوحيدة هي الفوضى..

هو شخص فوضوي بكل ما في الكلمة من معنى..

اكتشف أنه بارع بالرسم..

تفنن حتى غلبت عبقريتُه فوضويتَه..

باتت العبقرية صنو الفوضوية..

أصبحت فوضويته رمزاً للعبقرية.. وأصبحت الفوضى عنواناً لحياته..

والناس يصفقون للاثنين معاً..

المَجْنُونة

يعرفها أهل الحي بالمجنونة..

جاءت المجنونة.. راحت المجنونة..

تعالي يا مجنونة.. اذهبي يا مجنونة..

حتى هي نسيت اسمها.. أو أنها لم تعرفه أصلاً..

إذا مرَّ والدها قالوا: هذا أبو المجنونة..

إن مرت أمها قالوا: هذه أم

المجنونة . .

وإخوتها صاروا إخوة المجنونة . .

حتى منطقتها أصبحت تعرف بمنطقة المجنونة . .

ولما زادت قصصها . . واتسعت أخبارها . . صار الناس إذا سافروا عرّفهم الناس بأنّهم من بلاد المجنونة . .



في البدءِ كانَت...

كانا يتواعدان في المكان عينه كل صباح . .

هو في طريقه إلى الجامعة . . وهي في طريقها إلى المدرسة .

كلاهما مرتبك في نظراته، لم تكفِ صباحات كثيرة لتزيل الحاجز الفاصل بينهما .

أتى بوردة حمراء . . قبل أن يلتقيا دسَّها في جيبه . . هيبة اللقاء . .

كتبت أقاصيص الهوى . . لكنها لم

تجرؤ على البوح بها. .

كان مثل الوردة. . وكانت مثل الشِّعر. .

يلتقيان. . يتباعدان. . دون أن يبادر واحدٌ منهما الآخرَ بكلمة واحدة. .

أيعقل في هذا الزمان ما نراه من مشهد نادر يتكرر؟!

ظلا يتواعدان بلا ميعاد. .

تخرج هو من الجامعة. .

دخلت هي الجامعة. .

تبدل طريقه. . تبدل طريقها. . لكنهما لم يغيرا بُوصَلَةَ المكان ولا توقيت الساعة. .

نصحه أصدقاؤه بأن يقول «كلمة». .

نصحتها صديقاتها أن تبادر هي. .

لكنهما ما أن يلتقيا حتى تتناثر الخطط، وتتبدد الأفكار ويمضي كل واحد منهما دون أن يَحدث شيء. .

قررت أن تبدل طريقها. .

وهو أيضاً قرر القرار نفسه. .

المكان تغيرت نسماته. . وتغير صباحه. .

ولم يعد مكان اللقاء يجمعهما كل صباح. . ولم يعد كل صباح يجمعهما في المكان نفسه. . فلم يعد لهذا المكان قيمة. . وكذلك الصباح. . وقديماً قيل: «في البدء كانت الكلمة».



صارَت مَعَها

قالت له: أبي لن يقبل بك زوجاً..

أجابها: ما لنا وله.. ما دمت تحبينني..

تركت أهلها وهربت..

أخذها إلى شقة بعيدة.. أكد لها أنه سيتزوجها حالما يهيئ نفسه..

صَدَّقَتْهُ.. كانت صغيرة..

«لا تخافي.. أنت الآن جزء مني»..

هكذا.. ببساطة..

سلمته نفسها.. وكلما سألته متى سنتزوج؟ قال: قريباً.. قريباً!

ولم تكن تفهم..

اليوم... لم تعد تصدق أحداً.. فقد أصبحت تسمع مثل هذا الكلام كل يوم.. من شفاه مختلفة.. لكنها لا تقلق لأنها تحصل على أجرتها مسبقاً.. لا مثل المرة الأولى..



فهرس المحتويات



الدكتور طارق البكري

ولد المؤلف في بيروت عام 1966

من أسرة تنتمي إلى بلدة برجا في إقليم الخروب.

درس في مدارس المقاصد الإسلامية والتحق بجامعة بيروت العربية وتخصص في اللغة العربية وتخرّج بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف. تابع دراسته العليا في كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ونال الماجستير في الصحافة الكويتية والدكتوراه في مجلات الأطفال الكويتية، وسجَّل للدراسة العليا في جامعة الكويت في دراسة نقدية أسلوبية عن أدب الأطفال. بدأ عمله الصحفي مبكراً حيث عمل في جريدة اللواء و الرسالة و الشراع، وعمل في إذاعة صوت الوطن حتى انتقاله إلى الكويت سنة 1993 للعمل في جريدة الأنباء حيث أشرف على صفحة يومية للأطفال، ثم أصبح سكرتيرا لتحرير الإصدارات الخاصة في جريدة القبس، ويعمل الآن مدرساً في الجامعة العربية المفتوحة، ويدير تحرير مجلة أولاد وبنات التي تصدرها مجلة أسرتي.



خليوي: 235949 3 00961 تليفاكس: 920158 7 00961 ص.ب: 4101 بيروت - لبنان